مداخل اللسانيات التداولية في الخطاب البلاغي العربي ، متابعة تداولية

د، نور الهدى حسني
أ، باديس لهويمل
جامعة بسكرة

الملخص:

تحوي اللغة العربية صيغا عديدة للتعبير عن المعنى بطرق مختلفة تمكّن المتلفّظ بها من تحقيق مقاصده التّواصلية، وتتوزّع هذه الظّواهر والصّيَغ على علوم اللغة العربية المختلفة (نحو وصرف وبلاغة ودلالة) وهي ذات مظاهر لسانيّة وتداوليّة يستخدمها المتكلّم للدّلالة على القوّة الإنجازية التي يريد تضمينها كلامه.

لذلك يسعى هذا المقال كشف الصلة التي يمكن أن تنشأ بين البلاغة العربية والتداولية، من خلال توضيح مداخل اللسانيات التداولية في البلاغة العربية

مقدمة:

لا جرم أن دراسة اللغة بحثا عن المعنى قد شهد ظهور مدارس لسانية عديدة واتجاهات لغوية كثيرة كل منها يتناول دراسة اللغة من جانب معين يركز عليه ويجري أبحاثه انطلاقا منه، بحثا عن المعنى وسبرا لأغواره، حتى صارت بعض هذه الاتجاهات تعرف بما تركز عليه في دراستها مثل المدرسة الوظيفية على اختلاف أعلامها، أو المدرسة النسقية ليلمسليف، وغيرها من المدارس والاتجاهات اللسانية، ولعلّ اللسانيات التداولية لم تخرج عن ذلك، لكونها تبحث أيضا عن المعنى وتحاول كشفه بطرقها وآلياتها الخاصة بها فارتأت أنت تنفتح على سياقات عدة لتكون أكثر دقة وضبطا في كشوفاتها اللسانية، فنجدها تركز على دراسة اللغة في سياق التداول وأثناء الاستعمال، وهو ما يستوحى من تعريفاتها[1] المختلفة مباشرة، فهي(Linguistique Pragmatique) تخصص معرفي حديث النشأة والظهور على الساحة اللغوية؛ إذ بعدما كانت اللسانيات، تركز في أبحاثها على الجانبين البنوي والتوليدي؛ فتهتم بدراسة مستويات اللغة وإجراءاتها الداخلية(جانب بنوي)، وكذا وصف وتفسير النّظام اللّغوي ودراسة المَلَكَة اللّسانية المتحكّمة فيه (جانب توليدي)، في إطار ما يُصطلح عليه بـ"لسانيات الوضع" Linguistique de situation جاءت اللسانيات التّداولية لتعالج في مقابل ذلك ما يسمى بـ"لسانيات الاستعمال"(linguistique ´utilisation)[2]، فتعنى بأقطاب العملية التواصلية؛ فتهتمّ بالمتكلّم ومقاصده باعتباره مُحرّكا لعملية التواصل، وتراعي حال السامع أثناء الخطاب كما تهتم بالظروف والأحوال الخارجية المحيطة بالعملية التواصلية، ضمانا لتحقيق التواصل من جهة، ولتستغلّها في الوصول إلى غرض المتكلم وقصده من كلامه من جهة أخرى. ولعل هذا ما جعلها أكثر دقة وضبطا حيث تدرس اللّغة أثناء استعمالها في المقامات المختلفة، وبحسب أغراض المتكلمين وأحوال المخَاطبين.

فهي علم تواصلي جديد، يعالج كثيرا من ظواهر اللغة ويفسرها ويسهم في حل مشاكل التواصل ومعوقاته. ومّما ساعد التداولية على ذلك كونها مجالا رحبا يستمدّ معارفه من مشارب مختلفة فنجده يمتاح من علم الاجتماع وعلم النفس المعرفي، واللسانيات، وعلم الاتصال والأنثروبولوجيا، والفلسفة التحليلية[3]، ولعلّ

هذا ما يكسبها طابع التّوسع والثراء في مُعالجاتها المختلفة للغة؛ وجعلها تتّخذ لنفسها مكانة مهمّة في البحث اللغوي.

وفي الدراسات اللسانية العربية نجد الباحث المغربي "طه عبد الرحمان" يستحدث مفهوم المجال التداولي"في ترجمته لمصطلح pragmatique [4] ويقول في توصيفه للفعل" تداول":« تداول النّاس كذا بينهم يفيد معنى تناقله الناس وأداروه بينهم ومن المعروف أيضا أن مفهوم النقل والدوران مستعملان في نطاق اللغة الملفوظة كما هما مستعملان في نطاق التجربة المحسوسة ، فيقال: " نقل الكلام عن قائليه" بمعنى رواه عنه ويقال دار على الألسن بمعنى جرى عليها ويقال دار على الشيء بمعنى طاف حوله فالنّقل والدوران يدلاّن في استخدامهما اللغوي على معنى التواصل وفي استخدامهما التجريبي على معنى الحركة بين الفاعلين(...)، فيكون التّداول جامعا بين اثنين هما: التواصل والتفاعل، فمقتضى التداول إذن أن يكون القول موصولا بالفعل»[5].

فمجال التّداول عند الباحث يحمل معنى التواصل بين المخاطبين والتفاعل فيما بينهم، ومقتضاه أن يكون القول المتلفظ به موصولا بفعل إجرائي، ، وهو ما جعل الباحثين يتلقّون ترجمته بالقبول حينما وضع "طه عبد الرحمان" "التّداوليات" مقابلا للمصطلح الأجنبي " pragmatique " سنة 1970 [6]. خاصة في ارتباطه بالممارسة التراثية.

- **وظيفة اللسانيات التّداولية في البحث اللغوي:** وللتداولية مهام ووظائف تضطلع بأدائها تتقاطع فيها كثيرا مع بعض الآليات في البلاغة العربية، وتسهم في تحديد المعنى وضبطه، ويمكن حصر وظيفة اللسانيات التداولية بحسب الباحثة "كاترين أوركيوني"« في استخلاص العمليات التي تمكّن الكلام من التجذّر في إطاره الذي يشكل الثلاثية الآتية: المرسل، المتلقي والوضعية التبليغية. فأيّ تحليل تداولي يستلزم بالضرورة التحديد الضمني للسياق الذي تؤول فيه الجملة »[7]. فتركز اهتمامها في سبيل دراسة المعنى على عناصر العملية التواصلية وكل ما يسهم في نجاعة الخطاب التواصلي ويضمن سلامة وصوله للمتلقي، وفهم القصد منه.

دراسة اللّغة أثناء التّلفظ بها في السّياقات والمقامات المختلفة.« فالتّلفظ هو النّشاط الرّئيسي الذي يمنح استعمال اللّغة طابعها التّداولي»[8]، وذلك لكونه ينتقل باللغة من وجود بالقوّة في ذهن صاحبها إلى وجود بالفعل من خلال الممارسة الفعلية، وعلى أساس هذه المُمارسة يتحدّد القصد والغرض من الكلام، فالتّداولية، إذن، تدرس اللّغة بعدّها« كلاما محدّدا صادرا من متكلّم محدّد، وموجّها إلى مخاطب محدد، بلفظ محدد في مقام تواصلي محدد، لتحقيق غرضي تواصلي محدد»[9]؛ بمعنى أنّ اللسانيات التداولية تسعى إلى دراسة المنجز اللّغوي في إطار التّواصل وليس بمعزل عنه، ومعرفة مدى تأثير السّياقات الاجتماعية في نظام الخطاب، يقول "فان دايك"(van Dijk):« والفكرة الأساسية في التّداولية هي أنّنا عندما نكون في حالة التكلم في بعض السياقات فنحن نقوم أيضا بإنجاز بعض

الأفعال المجتمعية، وأغراضنا ومقاصدنا من هذه الأفعال».[10]

ويرى فان دايك أنّ من مهام التّداولية كذلك، دراسة شروط نجاح العبارات وصياغة شروط ملاءمة الفعل لإنجاز العبارة، ومدى ملاءمة كل ذلك لبنية الخطاب ونظامه يقول:« إنّ أحد مهام التّداولية أن تتيح صياغة شروط إنجاح إنجاز العبارة، وبيان أي جهة يمكن بها أن يكون مثل هذا الإنجاز عنصرا في اتجاه مجرى الفعل المتداخل الإنجاز الذي يصبح بدوره مقبولا أو مرفوضا عند فاعل آخر، وبهذا الاعتبار فإنّ المهمة الثانية، تقوم في صياغة مبادئ، تتضمن اتجاهات مجاري فعل الكلام المتداخل الإنجاز الذي ينبغي أن يستوفي في إنجاز العبارة حتى تصبح ناجحة، والمهمّة الثالثة: أنّه لما كانت معطيات التجربة متاحة بأوسع ما تكون، في صورة العبارة فقط، فيجب أن يكون من الواضح في التداولية، كيف تترابط شروط نجاح العبارة كفعل إنجازي، وكمبادئ فعل مشترك الإنجاز التّواصلي مع بنية الخطاب وتأويله».[11]

فالتّداولية تُتيح للمتكلّم وتضمن له نجاح إنجاز العبارات اللغوية، حيث تعالج أسباب فشل الدّراسات البنيوية الصرف للملفوظات، بمراعاة سياقات ورود العبارات اللّغوية واستعمالها، والانفتاح على كلّ ما يحيط بها ومراعاته، كما تتجاوز ذلك لدراسة كيفية إنجاز الأفعال من خلال القول وبيان أنّ إنجاز الفعل تتداخل فيه جهات مخصوصة وعديدة (اجتماعية، ونفسية، وثقافية وسياسية)، كما تهتم التداولية بشروط ملاءمة الفعل اللّغوي ومناسبته لتراكيب الكلام المنجز وسياقاته، ومدى مطابقة كل ذلك لبنية الخطاب العامّة.

فالتّداولية عند"فان دايك" تقوم بمهمة دراسة الشروط التي تضمن النّجاح والفعالية والمناسبة لكل استخدام لغوي، وفقا لما يقتضيه ويتطلبه كل موقف تواصلي.

ومن مهام التّداولية كذلك« شرح كيفية جريان العمليّات الاستدلالية في معالجة الملفوظات»[12] فتدرس كل قواعد الاستدلال التي تمكن المتكلم من إحكام صياغة عباراته اللّغوية وما تحويه من أفعال، بما يستجيب لأغراضه ومقاصده في المقامات التّواصلية المختلفة التي يكون فيها.

وتسعى التداولية كذلك لبيان كيف يمكن للتّواصل الضّمني(غير الحرفي)، أن يكون في الاستعمال أفضل من التّواصل الحرفي المباشر.[13]

وتهدف التداولية في محصولها العام، للإجابة عن أسئلة تطرح نفسها بقوّة، ولم تستطع المناهج الكثيرة السّابقة في دراستها للّغة الإجابة عنها، نحو: ماذا نصنع حين نتكلّم؟ ماذا نقول بالضّبط حين نتكلّم؟ من يتكلّم وإلى من يتكلّم؟ ولأجل من؟ ماذا علينا أن نعلم حتّى يرتفع الإبهام عن جملة أو أخرى؟ كيف يمكننا قول شيء آخر غير ما كنّا نريد قوله؟ هل يمكننا أن نركن إلى المعنى الحرفي لقصد ما؟ ما هي استعمالات اللغة؟[14]

وإذا كانت هذه أهمّ الأهداف والمهام التي تسعى التّداولية لمعالجتها ودراستها، ففيم تتمثّل أهميّة اللسانيات التداولية بالنسبة للمعالجة اللّغوية بعامة، وعلاقتها بالبلاغة العربية خاصة؟

5- بيان قيمة اللّسانيات التّداولية في البحث اللغوي: تتجلى أهمية اللسانيات التداولية في

دمجها المستويات اللّغوية المختلفة في منظومة واحدة، ودراسة اللغة على أساسها، أثناء الاتّصال اللساني (دراسة اللّغة قيد الاستعمال)، فتجعل المتلفّظ بالخطاب(المرسل) يرتبط بالمقام، فيتنبأ بما يستلزمه الموقف، ليراعيه أثناء إنجاز خطابه، وبذلك« يغدو معنى الملفوظات هو القيمة التي يكتسبها الخطاب في سياق التلفظ»(15)

وهذا ما يجعل المتلفظ بالخطاب هو المتحكم في المعنى لا اللغة نفسها، وبذلك يستطيع ضمان حصول عملية الفهم والإفهام، حيث يوظّف مستويات اللغة بما يستجيب لقصده، متكئا في ذلك على السّياق، بعدّه مؤثرا مهمّا في نظام الخطاب المنجز، وهذا ما أهملته الدراسات البنوية الصّورية.

فاللّسانيات التّداولية تهتم بدراسة المعنى اللّغوي أثناء الاستعمال، ولذلك وسمت بـ:(لسانيات الاستعمال اللّغوي)، وهذا ما يجعلها أكثر دقّة وضبطا في معالجتها للّغة، مما سيفيد في إعادة تقييم الخطاب البلاغي العربي، وتقويمه.

كما تتبدى أهمية اللّسانيات التداولية في محاولتها للإجابة عن الأسئلة العديدة التي مثّلت إشكاليّات جوهرية، أثناء معالجة النصوص المختلفة.

ثمّ إنّ اتّساع مجال البحث في التّداولية، نتيجة تعدد المشارب التي تمتحّ منها، جعلها درسا لغويا غزيرا وحيويا، يمدّ الدراسات اللّغوية والمعرفيّة بعدد من الأفكار والمفاهيم والرؤى الجديدة، التي يستضيء بها الباحثون في دارساتهم، ويصِلون من خلالها إلى نتائج قيّمة ما كانت لتبرز إلاّ في ضوء اللّسانيات التّداولية، ومناهج دراستها للمعنى وهو ما سنحاول استثماره في دراستنا لمفتاح العلوم.

فالتّداولية إذن« مشروع شاسع في اللّسانيات النّصية تهتم بالخطاب ومناحي النّصيّة فيه نحو المحادثة، المحاججة، التّضمين، ولدراسة التّواصل بشكل عام، بدءا من ظروف إنتاج الملفوظ، إلى الحال التي يكون فيها للأحداث الكلامية قصد محدد، إلى ما يمكن أن تُنشئه من تأثيرات في السّامع وعناصر السيّاق».(16)

كما تظهر أهمّية اللّسانيّات التّداولية في تجاوز النّظر اللغوي فيها مستوى الجملة إلى النّص، والمعطيات السّياقية والمقاميّة التي جعلته يرد بتلك الصّورة، ضمانا للفهم والإفهام.

وبهذا الطّرح الذي تقدّمه اللسانيات التداولية، يظهر أنّها قد تكون مدخلا مناسبا لدراسة التّراث البلاغي العربي، لما توفّره من آليات في الكشف عن المعنى ومكنوناته.

فإلى أيّ مدى تستجيب البلاغة العربية للطّرح التداولي؟

البلاغة العربية: لا جرم أن "البلاغة" عند أهل اللغة مصطلح يرتدّ للدّلالة على حسن الكلام مع فصاحته وأدائه للغاية المرادة منه (القصد)، فهي مأخوذة من قولنا: بلغ الشّيء منتهاه ؛ أدرك أقصاه. تقول:« بلغ الشيء يبلغ بلوغا وصل وانتهى وأبلغه هو إبلاغا، وبلّغه تبليغا(...)وتبلّغ الشيء وصل إلى مراده»(17)

فالبليغ من النّاس من يصنع من كلامه، تعبيرا عمّا في صدره فيبلغ به غايته من مُتلقيه بأيسر طريق، وأحسن تعبير(18)، وإذا عجنا إلى المعاجم اللغوية نجد المعاني نفسها حيث يدور أصل المادة (بلغ) على وصول الشيء إلى غايته ونهايته .

أمّا أبو هلال العسكري فيشير إلى أصلها اللّغوي، ويرى أنّ البلاغة سمّيت بلاغة لأنّها تنهي المعنى إلى قلب السّامع فيفهمه[19].وهذا الأصل اللّغوي تستند إليه كل الكتب البلاغية الحديثة في تحديد معنى البلاغة، فقولنا:« أبلغت الشيء إبلاغا وبلاغا، وبلّغته تبليغا، إذا أوصلته إلى غايته ونهايته»[20]

فنلاحظ أنّ معنى البلاغة بصفة عامة، ينهض على مراعاة طرفين اثنين:

الأول: هو المتلفّظ بالخطاب البليغ، ويجب أن تتوفر فيه صفات معيّنة حتى يتمكّن من التأثير في مخاطبه وبلوغ المبلغ الذي يريد منه، والطّرف الآخر هو المتلقّي للخطاب المبثوث من قبل المخاطب، في شكل رسالة بليغة وسليمة حتى تحدث الأثر المطلوب، مما يعني، أنّ البلاغة تقوم على مبدأ الاتّصال فتبحث في كيفية استخدام اللغة بطريقة سليمة تضمن وصول قصد المتكلّم ومراده إلى مخاطبه والتأثير فيه من خلال مراعاة حاله أثناء الكلام بما يضمن نجاعة الخطاب في النهاية.

ولذلك نجد الخطيب القزويني يعرّف بلاغة الكلام بكونها «مطابقته لمقتضى الحال مع فصاحته»[21] إذ على البليغ مراعاة طبيعة من يسوق كلامه إليه والظّرف المحيط به وجَوِّه النفسي.

وأول ما تتصرف إليه البلاغة هو "الإبلاغ". فتعالج كيفية التأثير في الآخر وإقناعه وبيان المقاصد التي يهدف الباحث إلى تحقيقها، وهذا يعدّ من صميم البحث التداولي، حيث يعالج درجات التّفاعل الاتصالي بين المخاطِب والمخاطَب وشدّة التّأثير وقوته، التي تتم بالأفعال الكلامية الموظّفة في الخطاب، والأدوات المختلفة (أدوات التوكيد، النفي، التّعريف التّنغيم،..) وكذا تحديد سمات الخطاب الناجع (الكلام البليغ).

فواضح أن للبلاغة وشائج قربى مع نظريّة الاتّصال والتّداولية، فإذا كانت هذه الأخيرة، في أوجز تعريفاتها «هي دراسة مناحي الكلام، أو دراسة اللغة حين الاستعمال فإن البلاغة هي المعرفة باللّغة أثناء استعمالها»[22].

فالبلاغة تنطلق من المتكلّم وقصده من كلامه، وما يجب أن يتوفّر فيه من شروط حتى يكون بليغا، لتتّجه نحو المستمع باعتباره المقصود من الخطاب، فتراعي مقتضى حاله إضافة لعنايتها بالرّسالة في حدّ ذاتها فتضع لها شروطا لكي تصير خطابا بليغا ناجحا يختلف عن خطاب العامّة، يقول السكاكي(ت626)« البلاغة هي بلوغ المتكلّم في تأدية المعاني حدا له اختصاص بتوفية خواص التراكيب حقها، وإيراد أنواع التّشبيه والمجاز والكناية على وجهها، ولها، أعني البلاغة، طرفان: أعلى وأسفل...وبينهما مراتب تكاد تفوت الحصر»[23].

وقد استعان السّكاكي في تعريفه للبلاغة، بالمنطق كي يصوغ ألفاظه بدقّة وإحكام فنجده يقوم على جملة من العناصر، تحمل مظاهر وسمات تؤكّد البعد التّداولي للبلاغة العربية:

<u>أولا</u>: أنّ المتكلّم يجب أن يبلغ في استعماله الكلام الحدّ الذي يمَكّنه من توفيه تراكيب الكلام حقّها[24]، فيكون فصيحا، وملتزما بما ثبت في متن اللغة من قواعد النّحو والصّرف والدّلالة والمعجم، ويختار الفصيح من مفردات اللغة وجملها،(صحة اللغة وصوابها) ومحترزا عن

الخطأ في تأدية المعنى المراد، وعدم التّعقيد في أداء المعاني، وهي جوانب تُعنى بها حديثا اللّسانيات التّداولية، من خلال دراسة اللّغة في سياقات استعمالها تجنبا لتعقيد الألفاظ والمعاني إذا أخذت منعزلة عن سياقاتها ، وضمانا لقوّة التأثير في السّامع.

فللمتكلم إذن دور بارز سواء في البلاغة العربية أم في اللسانيات التّداولية بعدِّه منتج الخطاب والمتلفظ به[25]، فالمتكلّم أساس فهم المعنى وتحديد الدّلالات ومقاصدها، لأنه يرتبط بما ينويه من كلامه وما يروم تحقيقه.

ثانيا: يجب على البليغ أن يوظّف في كلامه طائفة من الأدوات البلاغية نحو التشبيه وأنواعه والمجاز والكناية والاستعارة بأنواعها كي يكون كلامه(خطابه) بليغا، في صورة تأسِر المتلقّي وتؤثّر فيه، وبذلك يضمن المتلفّظ بالخطاب تلقّي سامعه لخطابه على النحو الذي يرمي إليه. وهو ما لا يتوفّر عند كل الناس، فيقتصر على طبقة البلغاء منهم فقط وإلاّ صار كل من يبثّ رسالة كلامية بليغا وأديبا، فالبلاغة تعنى بالتّواصل الأدبي الرّفيع وشروط تحققه، ثم تحكم له أو عليه.

وتعد هذه الجوانب التي ترتبط بالخطاب: مؤشّرات تداولية مهمّة تعنى بها قضايا التداولية أيّما عناية، على نحو ما نجد في النّظرية الإشارية، والحجاج اللّغوي، وأفعال الكلام لكون تلك المؤشرات المطلوبة في الكلام البليغ، تكشف عن قصد المتكلّم ودرجة شدّته في أفعاله الخطابية المتضمَّنة في جملة أقواله الصادرة عنه، كما تعدّ مؤشِّرات موجِّهَة للخطاب نحو سامعه، على النّحو الذي يريده المتلفّظ بالخطاب.

ثالثا: أنّ للبلاغة طرفان أعلى وأسفل، وبينهما مراتب لابدّ لها من الاشتمال على الأدوات البلاغية التي أشار إليها السكاكي (التشبيه، والمجاز، والاستعارة، والكناية) وبحسب جودة توظيف هذه الأدوات وشدّة إحكامها بما يتناسب مع مقتضيات الأحوال تعلو البلاغة أو تدنو، فلكل مقام مقال، وأعلى حد تبلغه البلاغة هو الإيجاز.

فالبلاغة بصفة عامّة تعنى بجملة من العناصر تعد من صميم بحث اللسانيات التداولية وتكون في الكلام وفي المتكلم، وهي:[26]

- صحّة اللّغة وصوابها، ويشمل الاهتمام بمستويات اللغة جميعا وعناية بسلامة الألفاظ من العيوب.
- أن يكون المعنى الذي قصده المتكلم مطابقا ومنسجما مع الألفاظ والجمل التي استعملها المتلفّظ في خطابه.
- أن يكون المتكلِّم(المتلفّظ) صادقا في نفسه.

ويمكن أن نضيف إليها معرفة أقدار السّامعين ومنازلهم ومراعاتها أثناء التّلفظ بالخطاب.

واضح أنّ هذه العناصر تشكّل مجالات مشتركة بين البلاغة العربية واللّسانيات التّداولية، بمختلف جوانب دراستها للمعنى، فهذه الأخيرة تعنى كذلك «بالشّروط اللاّزمة لكي تكون الأقوال اللّغوية "مقبولة وناجحة وملائمة" في الموقف التّواصلي الذي يتحدث فيه المتكلم».[27]

إنّ البلاغة العربيّة واللّسانيات التّداولية يشتركان ويتّفقان كما هو واضح في الاعتماد على

اللغة بعدّها أداة لممارسة الفعل على المتلقّي في سياقات مخصوصة ولذلك نجد من المحدثين من يُسوّي بين البلاغة والتداولية مثل "جيفري ليتش"(J. Leitch) حيث يرى أنّ البلاغة «تداوليّة في صميمها، إذ أنّها ممارسة الاتّصال بين المتكلّم والسّامع».[28] فكلاهما يهتم بعمليّة التلفظ والعوامل المتحكمة فيها ،قبل الكلام، وأثناء التّلفظ بالخطاب، وإلى غاية إنجازه؛ فالبلاغة والتّداولية، علمان يتفقان في« دراسة الوسائل اللغوية التي يستعملها المتكلّم في عملية التّواصل وعوامل المقام المؤثّرة في اختياره أدوات معيّنة دون أخرى للتّعبير عن قصده، كالعلاقة بين الكلام وسياق الحال، وأثر العلاقة بين المتكلّم والمخاطَب على الكلم والمقاصد من الكلام»[29].

وقد تحقق للبلاغة العربية أيضا، هذا التّقارب في المعالجة، مع اللّسانيات التّداولية من خلال دراستها للتّعابير اللّغوية بمستوياتها المختلفة:(صوتية، وصرفية، وتركيبية ودلالية) والبحث في العلاقات القائمة بينها(النظم والتعليق)، وسياقات استعمالها؛ أي أنّها تهتم بكل ما يرتبط باللغة وممارستها، وكأنّها تبحث في نظريّة تواصليّة شاملة لكل عناصر الحدث الكلامي، فالبلاغيون العرب، واللغويون بصفة عامة تركّزت دراساتهم على محاولة وصف ما بين بنية اللغة ووظيفتها من ترابط،« فباعتبار التّراكيب اللّغوية رسائل لتأدية أغراض تواصليّة معيّنة، انصبّت هذه الدّراسات على رصد العلاقة بين كل نمط من أنماط التراكيب والغرض المتوخى تحقيقه، وعلى أساس هذا المبدأ درست وظائف عديدة نحو: التّقييد، التّوكيد التّخصيص.»[30]

فالمبدأ الذي انطلقت منه البلاغة، وجل علوم اللغة العربية، هو مبدأ وظيفي تداولي يقوم على رصد خصائص تراكيب اللغة في علاقتها بمقامات إنجازها من جهة وأغراضها التواصلية التي وضعت لأجلها من جهة أخرى، كما أنّ تلك الوظائف من تقييد وتوكيد وتخصيص، التي درستها البلاغة العربية والنحو العربي، تعدّ وظائف تداولية في صميمها فالتّقييد مثلا وظيفة يسعى المتكلم من ورائها إلى «توضيح قصد المتكلّم والكشف عن مراده»[31]، من خلال إضافة مكونات لنواة الجملة، نجد أيضا "التوكيد" وظيفة ترد في كلّ إخبار يرمي به المتكلّم تنبيه المخاطب إلى أنّ مضمونه ليس ناتجا عن سهو أو نسيان»[32]فهو إذن وسيلة لتقوية الإخبار وبيان أنّه مقصود فعلا من المتكلّم.

كلّ هذا يجعل البلاغة العربية[33]، بعدِّها موضوع بحثنا، مصدرا من مصادر التّفكير التّداولي العربي، وأرضية خصبة لمعالجتها بتقريب تداولي يُعيد لها مكانتها بكشف مظاهرها وأبعادها الوظيفية التداولية.

والبلاغة العربية ارتبطت في نشأتها بالنّص القرآني، فلم يكن الوصف اللغوي فيها منصبا على الجملة مجردة من مقامات إنجازها، بقدر ما نظر إلى النّص بعدّه خطابا متكاملا، وهو ما ينطبق على باقي علوم العربية(نحوا ،وأصولا، وتفسيرا)، فمادام أنّها تروم وصف وتحليل نصّ القرآن الكريم بغية فهمه، سينتج عن ذلك أنّ «المعطيات المنصب عليها الوصف اللغوي ليست جملا مفردة مجرّدة من مقامات إنجازها، بل إنّها خطاب متكامل متماسك».[34]

كما أن قضية الإعجاز التي تبحثها البلاغة العربيّة، طرحت طرحا نصّيا في مؤلّفات البلاغيين، ومنها "مفتاح العلوم" للسّكاكي، لأنّ الإعجاز يكمن في النص ذاته؛ «فالإعجاز مزية النّص، والنّص قوامه الجمل المتعددة المتواصلة بالعلاقات المتشابكة»[35]،فالبلاغة تبحث في إعجاز نصّ خالدٍ، وتقوم بوصفه وتفسيره ممّا يعني أنّها تبحث في خطاب متكامل متماسك، وتتجاوز بذلك حدود الجملة، والإشكالية القائمة التي تعزل اللّفظ عن المعنى لتصل إلى توحيد النّظر بينهما من خلال دراسة إعجاز النصّ ككل.

إذن بحث البلاغيّون أثر المعنى ضمن السياق[36]وبالتالي ضمن النص، فاهتموا في سبيل ذلك بجملة من المبادئ والوظائف تعدّ من صميم البحث التداولي حديثا لعلّ من أبرزها:

- دراسة مجالات الترابط بين البنية والوظيفة.

- دراسة اللغة العربية بعدِّها وسيلة للتّواصل والتّعبير عن الأغراض والمعاني فهي ذات قيمة نفعية تعبيرية.

- اعتمادهم مبدأ لكل مقام مقال.

- اهتمامهم بعناصر الخطاب: المتكلّم وقصده، والسّامع وأحواله، والخطاب ونوعيته والظروف المحيطة بكل ذلك.

- دراستهم الأساليب وأغراضها وانتقالها من الدّلالة الحقيقية إلى دلالات أخرى يقتضيها المقام بخاصة وأن اللغة العربية« تشتمل على طائفة من الصيغ والأدوات التي يريد المتكلم تضمينها كلامه كالتّقرير والاستفهام والتّمني والإخبار والنفي والإثبات والطلب والترجي، فكان على طوائف من العلماء العرب ولاسيما البلاغيين الدارسين لعلم المعاني أن يتعرّضوا للقوى المتضمّنة في القول بغرض تحديد ما يقتضيه حال معين نزولا عند قاعدة "مطابقة الكلام لمقتضى الحال"[37].

- دراستهم لمجموعة من الوظائف النحوية: كالتّخصيص، والتّقييد، والتّوكيد، دراسة وظيفية تداولية.

فالبلاغة العربية و التّداولية يتداخلان ويتشابكان في قضايا عديدة تجعل من التّقريب التداولي للتراث البلاغي العربي، منهجا لا يعوزه التّأسيس اللّساني لما بينهما من وشائج قربى، وصلات في مباحثهما.

ونأخذ مثالا لذلك ما ورد في "مفتاح العلوم" للسكاكي بخصوص تعريف البلاغة، بعدّه الصورة النهائية التي اكتملت فيها البلاغة وتحدّدت معالمها وفنونها الثلاث، حيث يضمّ التعريف آليات لغوية وتداولية مهمّة توضح ما طرحنا سابقا يقول السّكاكي: «هي بلوغ المتكلم في تأدية المعاني حدّا له اختصاص بتوفية خواص التراكيب حقّها وإيراد أنواع التشبيه والمجاز والكناية على وجهها»[38].

فالملاحظ على هذا التعريف أنه يشير إلى مظاهر تداولية واضحة ويركّز عليها؛ فيجمع بين خواص تراكيب الكلام، ومراعاة مقتضى الحال، ومطابقة الكلام للقصد والمراد منه، وكذا مراعاة وضوح الدلالة.

فتُمكن الإحاطة بهذه الآليات جميعا من دراسة اللّغة في سياقات استعمالها وورودها أثناء التواصل، وهذا تصوُّر يُساير ما طفقت الدّراسات اللسانية النّصية والتّداولية تؤكّده في تحليلاتها للّغة وبحثها عن المعنى.

ويتّضح الطرح التداولي للبلاغة العربية أيضا في أضرب الخبر، حيث يحدّدها البلاغيون انطلاقا من رواية أبي إسحاق الكندي مع أبي العباس المبرد، حينما سأل الكندي المبرّد بأنّه يجد في كلام العرب حشوا يظهر في قولهم: "عبد الله قائمٌ"، ثم قولهم "إنّ عبدَ الله قائمٌ"، ثمّ "إنّ عبدَ الله لقائمٌ" والمعنى ،حسبه، واحد، فأجابه المبرّد وهو أديب ولغوي، بأنّ المعاني مختلفة ذلك أنّ "قولهم عبد الله قائم"، إخبار عن قيامه وقولهم "إنّ عبد الله قائم" جواب عن سؤال سائل وقولهم "إنّ عبد الله لقائم"، جواب عن إنكار منكر لقيامه.[39]

فالرواية تمثّل أساسا مُهما لتحديد أضرب الخبر في البلاغة العربية، حيث يتردّد ذكرها في كتب البلاغيين كثيرا عند حديثهم عن أضرب الخبر، فأوردها عبد القاهر الجرجاني في كتابه "دلائل الإعجاز"، وقام بتوضيح القصد منها. وكذلك فعل السّكاكي في مفتاحه، وهو الذي اكتملت على يديه فنون البلاغة ومصطلحاتها.

وواضح أن الخبر الذي تحمله الرواية يكشف لنا الفرق بين التصور القضوي للخطاب، والتصور التخاطبي له، فسؤال الكندي يدل على أنه لا يرى في الكلام سوى معناه القضوي ممثلا في نسبة القيام لزيد، ولذلك رأى في الكلام حشوا إذ القضية المعبّر عنها واحدة، دون أن يلتفت للمعنى الإنجازي المراد بكل جملة مما سبق، وهو ما كشف عنه "المبرَّد" حيث بيّن« أنّ المعنى الذي يقصده المتكلم، يتّخذ له من الوسائل اللّغوية والمقاميّة ما يعين على إدراكه، فقد أدرك أن قصد المتكلم مراعى فيه حال المخاطب».[40]

فالتّصور التّخاطبي إذن لما رآه الكندي حشوا، هو أنّ الجمل الثلاث تشكّل خبرا تختلف درجاته في كلّ مرة بحسب المقام والغرض المتضمّن في القول، وكل تغيُّر في اللّفظ فيها مؤذن بتغيّر في المعنى، واللّغة في هذه الحال، تعدّ بمنظور تداولي:« أعمالا لغوية يختلف فيها توكيد الإثبات عن الإثبات ويراعي المتكلم عند إنجاز الأعمال اللغوية اعتقادات المخاطَب وافتراضاته»[41]

فراوية ابن الأنباري التي عرض فيها سؤال الكندي وجواب المبرّد له[42]،لو عجنا إليها لوجدناها تضمّ قرائن تداوليّة تستند عليها نحو استخدام أدوات معينة لتوكيد الكلام والتّدرج فيه، وكأنها تعرض سلالم حجاجية تجعل المتكلم يتدرج في الاحتجاج لكلامه بحسب حال مخاطبه ودرجة تقبّله أو إنكاره للخطاب.

هذا ونجد بلاغيينا وخاصة السّكاكي يشيرون إلى كون اللّغة تستعمل في مقامات كثيرة ومختلفة، وأنّ كل مقام يقتضي كيفية في التّركيب مختلفة كي يؤدي المعنى المنوط به، يقول السكاكي: « فمقام التشكّر يباين مقام الشّكاية ومقام التهنئة يباين مقام التعزية ومقام الترغيب يباين مقام الترهيب ومقام الجد في جميع ذلك يُباين مقام الهزل، وكذا مقام الكلام ابتداء يغاير مقام الكلام بناء على الاستخبار أو الإنكار ومقام البناء على السؤال يغاير مقام البناء على الإنكار،(...) وكذا مقام الكلام مع الذّكي يغاير مقام الكلام مع الغبي، ولكلّ من ذلك مقتضى غير مقتضى الآخر، ثم إذا شرعت في الكلام فلكل كلمة مع صاحبتها مقام، ولكل حد ينتهي إليه الكلام مقام»[43].

وهذا نص صريح من "أبي يعقوب" يقرّ بأن مقامات الكلام متفاوتة، ومنه فاستعمال اللغة فيها يتفاوت بحسب المقام والحال التي تقال فيها اللّغة، فخطاب المُهَنِّئ غير خطاب المُعزّي، والخطاب الموجه للذكي يختلف عن خطاب الغبي؛ أي أن استعمال اللغة يخضع لمعايير يجب اعتمادها منها: قصد المتكلم ، وحال السامع ، ومقام الكلام والسياق، وهي نفسها عناصر الخطاب عند علماء الدرس اللساني الحديث والمعاصر (لسانيات النص والتداولية، وتحليل الخطاب)، وهذا دليل آخر على اهتمام السكاكي بالجانب الاستعمالي للغة من خلال توصيفه لعناصر العملية التواصلية وربطها بمقتضى الحال[44]، مما يجعل "مفتاح العلوم" يشكّل أحد عطاءات الثقافة العربية الإسلامية التي تسهم في تطور الفكر الإنساني بعامة واللغوي منه بخاصة.

ومنه يمكننا القول اللّغة العربية تحوي ظواهر عديدة وصيغا كثيرة، ومفاهيم إجرائية مختلفة تمكّن المتلفّظ بها من تحقيق أغراضه التّواصلية وإفادة مخاطبه مقاصده الإبلاغية وتتوزّع هذه الظّواهر والصّيغ والمفاهيم على علوم اللغة العربية المختلفة (نحو وصرف وبلاغة ودلالة) وتتقاطع فيما بينها وما البلاغة العربية إلاّ واحدة من هذه العلوم العربية التي تزخر بجملة من هذه الظّواهر الخطابيّة، وهي ذات مظاهر لسانيّة وظيفية وتداوليّة يستخدمها المتكلّم للدّلالة على القوّة الإنجازية التي يريد تضمينها كلامه، مثلما تبيّن لنا، أما اللسانيات التّداولية فتعدّ أساسا ترتكز عليه كثير من النّظريات والأبحاث اللّسانية وغير اللّسانية في دراساتها، لعمق تحليلها ودقّة نتائجها حيث تدرس المعنى لا في ثبوته وإنّما في سياقات استعماله، ولذلك فإنها مصدر ثري يمكن له أن يغني التّراث اللّغوي العربي بعامة بأبعاد لسانية ومعرفية مهمّة، تُمكّن من تقويمه بطريقة موضوعية .

الهوامش والإحالات:

---

(1) ينظر :جاك موشلار،التداولية واللسانيات والعرفان، ترجمة: شكري المبخوت، ضمن كتاب القاموس الموسوعي للتداولية ، ترجمة مجموعة من الأساتذة والباحثين بإشراف عز الدين المجدوب، المركز الوطني للترجمة، دار سيناترا، ط2، 2010، ص23.

(2) ينظر : نعمان بوقرة: اللسانيات اتجاهاتها الأساسية وقضاياها الراهنة، عالم الكتب الحديث، جدارا للكتاب العالمي الأردن، ط1، 2009، ص 160.

(3) ينظر : محمود أحمد نحلة: آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، دار المعرفة الجامعية الإسكندرية، (دط)،2002 ص11،10؛ مسعود صحراوي: التداولية عند العلماء العرب، دراسة تداولية لظاهرة الأفعال الكلامية في التراث اللساني العربي، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت ط1،2005، ص17، ص26؛ نعمان بوقرة: اللسانيات اتجاهاتها الأساسية وقضاياها الراهنة، ص163.

(4) مصطلح التداولية في أصله الأجنبي "pragmatique"فإنّه يعود إلى الكلمة اللاتينية pragmaticus المبنية على الجذر pragma، ويعني العمل أو الفعل Action وتقلّبت مدلولات المصطلح على مدلولات عدة، لينتقل استعماله

إلى الميدان العلمي بداية من القرن17م، وصارت تدل على كل ماله علاقة بالفعل أو التّحقق العملي وبعبارة أخرى، يدل على كل ما له تطبيقات ذات ثمار عملية. واستخدم مصطلح التداولية (pragmatique) في المجال الفلسفي كذلك للدلالة على كل فكرة أو ظاهرة لا تتحقّق إلا من خلال تطبيقاتها العملية، وانعكاس نتائجها في الواقع- voir: Jan Michel; la pragmatique-outil pour l'analyse littéraire, Armand colin, paris, 1998, p: 4.

(5) تجديد المنهج في تقويم التراث، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء،المغرب، ط2،2005، ص244.

(6)يقول طه عبد الرحمان: «وقد وقع اختيارنا منذ 1970 على مصطلح التداوليات مقابلا للمصطلح الغربي (براغماتيقا) لأنه يوفي المطلوب حقه، باعتبار دلالته على معنيين: الاستعمال والتّفاعل معا، ولقي منذ ذلك الحين قبولا من لدن الدارسين الذين أخذوا يدرجونه في أبحاثهم »، طه عبد الرحمان: في أصول الحوار وتجديد علم الكلام، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب ، ط2، 2000، ص27.

7 – C.K ORECCHIONIE, Enonciation de la subjectivité dans le langage, Librairie Armand Colin, 1981, p 185.

(8) عبد الهادي بن ظافر الشّهيري: استراتيجيّات الخطاب، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، ط1،2004، ص27.

(9) مسعود صحراوي: التداولية عند العلماء العرب، ص26.

(10) فان دايك: النص والسياق، استقصاء البحث في الخطاب الدلالي والتّداولي، ترجمة: عبد القادر قنيني، أفريقيا الشّرق، المغرب،(دط)، 2000، ص292.

(11) المرجع نفسه، ص256.

(12) مسعود صحراوي: التداولية عند العلماء العرب، ص27.

(13) ينظر: المرجع نفسه ص27؛ وآن روبول، جاك موشلار: التداولية اليوم، ترجمة سيف الدين دغفوس،محمد السيباني، دار الطليعة للطباعة والنشر،ط1، 1998، ص71.

(14) ينظر: فرانسواز أرمينكو: المقاربة التداولية، ترجمة سعيد علوش، مركز الإنماء القومي، الرباط، المغرب، 1986، ص11.

(15) عبد القادر بن ظافر الشهيري: استراتيجيات الخطاب، ص22، 23.

(16) خليفة بوجادي: في اللسانيات التداولية، بيت الحكمة للنشر والتوزيع، العلمة، الجزائر، ط1، 2009، ص135.

(17) ابن منظور: لسان العرب(مادة "بلغ")، ص345، 346.

(18) ينظر: عبد الملك مرتاض: "مقدمة في نظرية البلاغة متابعة لمفهوم البلاغة ووظيفتها"، مجلة جذور، النادي الأدبي الثقافي، جدة العدد28، المجلد:11،2009، ص217.

(19) ينظر: أبو هلال العسكري: الصّناعتين ' الكتابة والشعر'، تحقيق: علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، منشورات المكتبة العصرية، صيدا-بيروت، لبنان، دط، 1986م، ص6.

(20) عبد الرحمان حسن حنبكة الميدان: البلاغة العربية أسسها وعلومها وفنونها، وصور من

تطبيقاتها،الجزء1، دار القلم، دمشق، الدار الشامية ، بيروت، ط1، 1996، ص128.

(21) الإيضاح في علوم البلاغة، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ص11.

(22) خليفة بوجادي: في اللسانيات التداولية، ص154.

(23) مفتاح العلوم، ص526.

(24) ينظر: عبد الملك مرتاض: "مقدمة في نظرية البلاغة"، ص232.

(25) ينظر: خليفة بوجادي: في اللسانيات التداولية. ص163.

(26)محمد كريم الكوّاز:البلاغة والنقد المصطلح والنشأة والتجديد، مؤسسة الانتشار العربي، يروت،لبنان،ط1،2006،ص16.

(27) صلاح فضل: بلاغة الخطاب وعلم النص، دار الكتاب المصري، القاهرة، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ط1، 2004 ص31.

(28) المرجع نفسه، ص121.

(29) جيليان براون، جورج يول، تحليل الخطاب ترجمة وتعليق: محمد لطفي الزّليطي، منير التريكي، جامعة الملك سعود المملكة العربية السعودية،(دط)،1997، ص32(الهامش).

(30) أحمد المتوكل: اللسانيات الوظيفية (مدخل نظري)، ص84.

(31) المرجع نفسه، ص85.

(32) المرجع نفسه، ص85.

(33) من أهم مصادر التفكير التداولي في التراث العربي إلى جانب البلاغة نجد: علم النحو، والنقد، والخطابة، والفلسفة وعلم الأصول حيث قدّم علماؤه إسهامات قيمة من خلال ربط البنية بالوظيفة ودراسة عديد الوظائف النحوية والبلاغية تداوليا، ولذلك يقول الباحث محمد سويرتي: «إن النّحاة والفلاسفة المسلمين، والبلاغيين والمفكرين مارسوا المنهج التداولي قبل أن يذيع صيته بصفته فلسفة وعلما، رؤية واتجاها أمريكيا وأوربيا، فقد وظف المنهج التداولي بوعي في تحليل الظواهر والعلاقات المتنوعّة». محمد سويرتي: النحو العربي من المصطلح إلى المفاهيم تقريب توليدي وأسلوبي وتداولي أفريقيا الشرق المغرب،(دط)، 2007، ص140.

(34) أحمد المتوكل: اللسانيات الوظيفية ص35؛ وينظر: عبد الجليل ناظم: البلاغة والسّلطة في المغرب، دار توبقال للنّشر، الدار البيضاء، ط1،2002، ص117.

(35) عبد الجليل ناظم: البلاغة والسلطة في المغرب، ص117.

(36) يقول الباحث "منذر عياشي "في هذا: «إذا أخذنا كتاب مفتاح العلوم للسّكاكي، فسنرى أنّه قد رتّب أبوابه بما يتناسب ودراسة النّص إن تفسيرا وإن إنتاجا، وقد عالج فيه علاقة اللّفظ بالمعنى، ضمن علاقة أكبر هي علاقة النّص بأجزائه أو بمكوّناته، وغير السّكاكي نهج هذا النّهج أيضا، ويدلّ هذا أنّهم كانوا أصحاب نظرة كلّية وشموليّة يستحيل معها الانطلاق اكتفاء بالفروع دون الأصول وبالجزئيات دون الكلّيات، ولذا نراهم قد أسّسوا جملة من العلوم(كعلم الاستدلال) أو(علم خواص تراكيب الكلام)، وغير ذلك، فكان منها ما يختصّ بلسانيّات النّص، كما كان منها ما يختص بلسانيات الجملة(...) ونستدلّ على هذه الشمولية بالتّعريفات التي استخدموها". منذر عيّاشي:الكتابة الثانية وفاتحة المتعة، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط1، 1998، ص113، 114.

(37) ينظر: مسعود صحراوي: التداولية عند العلماء العرب، ص6؛ وينظر: طالب سيد هاشم الطبطبائي، نظرية الأفعال الكلامية بين فلاسفة

اللغة المعاصرين والبلاغيين العرب، مطبوعات جامعية الكويت،(دط)، 1994، ص2.

(38) مفتاح العلوم، ص526.

(39) ينظر: المصدر نفسه، ص259.

(40) محمود أحمد نحلة: آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، ص108.

(41) شكري المبخوت : الاستدلال البلاغي، دار المعرفة للنشر، كلية الآداي والفنون والانسانيات، جامعة منوبة، تونس، ط1 2006، ص22.

(42) يعدّ الجواب البلاغي للمبرّد على سؤال الكندي دليلا واضحا على مشروعية القراءة التداولية للفكر البلاغي العربي، وتأكيدا صارخا لوجود مظاهر ومبادئ تكاد تكون نفسها التي= =يعنى بها الدّرس التداولي الحديث على غرار القصد والإفادة ومطابقة الكلام لمقتضى الحال والمقام؛ فأمثلة الكندي التي رأى فيها تكرارا يحمل كلّ منها مظاهر تداولية كشفها له أبو العبّاس، وتتعلّق بسياق استعمال كل مثال. ينظر: صالح بن غرم الله بن زياد، البلاغة العربية من حيث هي موقف تلق(إستراتيجية القصد والغرض والقارئ القياسي) المجلة العربية للعلوم الإنسانية، مركز دراسات الخليج والجزيرة العربية الكويت، العدد91، 2000، ص46، 47.

(43) المصدر نفسه، ص526.

(44) ينظر:باديس لهويمل: مظاهر التداولية في مفتاح العلوم، عالم الكتب الحديث، الأردن، ط1، 2014، ص156؛ و نعمان بوقرة: "نحو نظرية لسانية عربية للأفعال الكلامية"، مجلة اللغة والأدب، جامعة الجزائر، العدد17، جانفي 2006، ص180، ويتجلى البعد التداولي بعمق عند السكاكي في نصه، من خلال ربطه بين بنية الخطاب من جهة وبين أغراضه وملابساته التواصلية من جهة أخرى، مع تفسير الأولى بالثانية، ينظر:"مسعود صحراوي" :التداولية عند العلماء العرب، ص76.